الفصل الثالث:

الدولة العثمانية وسيطرتها على الوطن العربي

. العثمانيون: أصلهم وتكوين دولتهم:

ينتمي العثمانيون إلى قبيلة من قبائل الغز التركية تدعى قبيلة قابي. حيث خرجت هذه القبيلة من أواسط آسيا باتجاه الغرب تحت قيادة أرطغرل بك وساندت دوله الروم السلاجقه ضد أعدائها فمنحهم السلطان السلجوقي علاء الدين الأول منطقة تقع في الشمال الغربي من آسيا الصغرى (الأناضول) و التي تعرف اليوم بتركيا وكان ذلك في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي. وبدأ العثمانيون بتوسيع إمارتهم خصوصاً في زمن عثمان بن أرطغل بك الذي سميت الدولة باسمه والذي اعتنق الإسلام وتبعه الأتراك العثمانيون متأثرين بالروم السلاجقة المسلمين. وسرعان ما نمت هذه الدولة الإسلامية، وأصبحت إمبراطورية مترامية الأطراف امتدت إلى آسيا و أوروبا وأفريقيا، ومنها إلى الوطن العربي باستثناء المغرب الأقصى. ولا شك في أن الصراع بين الدولة البيزنطينية ودولة الروم السلاجقه قد أضعفهما، مما وَلَّد فراغا سياسياً في أسيا الصغرى، ساعد على أن يملأه العثمانيون لتصبح قاعدة لبناء إمبراطوريتهم.

التوسع العثماني في أوروبا:

اتجه العثمانيون في البداية لغزو البلقان في أوروبا واحتلاله، وكذلك السيطرة على بلاد الأناضول. وفي عهد السلطان محمد الثاني تمكن العثمانيون من الاستيلاء على عاصمة البيزنطيين (القسطنطينية) عام ١٤٥٣م و أطلق عليها اسم مدينة اسلامبول أو استامبول (اسطنبول حالياً) أي: عاصمة الإسلام ولقب السلطان

منذ ذلك الوقت باسم محمد الفاتح، وبذلك تمكن العثمانيون من السيطرة على ضفتي البسفور، أي: الجانبين الآسيوي و الأوروبي، واعتبر هذا الحدث تحولاً مهماً و تاريخياً لصالح العثمانيين ضد البيزنطينيين المسيحيين، و كذلك في إتمام السيطرة على منطقة البلقان وأجزاء من اوروبا (الصرب، والبوسنه و الهرسك، والموره، وألبانيا، وجمهورية جنوة والبندقية، ومملكة نابولي).

وخلاصة القول أن الفتح العثماني العسكري لأوروبا و الذي بدأ في النصف الثاني من القرن الرابع عشر وبلغ ذروته في القرن السادس عشر قد تزامن مع انحسار الإسلام في الأندلس، و سقوط غرناطة في أيدي الأسبان عام ١٤٩٢م.

ومن جانب آخر فإن التوغل العثماني في المجر و النمسا وغيرها من بلاد وسط أوروبا قد كان في أجواء مسيحية معادية تماماً، بينما كانت جبهتهم في حوض البحر المتوسط تضم أقطاراً عربية إسلامية تعاونت معهم لمقاومة الغزو الأوروبي خلال فترة الاستكشافات الجغرافية، ولكي يثأر أهلُ المغرب العربي المسلمون لإخوانهم الذين أخرجوا من ديارهم في الأندلس.

احتلال الوطن العربي:

أ. الأسباب:

أصبح سليم الأول سلطاناً على الدولة العثمانية خلال الأعوام (١٥١٢م ١٥٢٠م)، وقد أحدث هذا السلطان انقلاباً في الاستراتيجية العسكرية العثمانية عندما أوقف الزحف العثماني نحو الغرب الأوروبي، واتَّجه إلى غزو الوطن العربي، ويعود سبب ذلك إلى ثلاثة عوامل رئيسية وهي:

١. أن الدولة العثمانية قد بلغت مرحلة الإشباع في فتوحاتها الغربية وكان عليها أن تبحث عن ميادين جديدة للنشاط و التوسع لا تبعدها كثيراً عن مركز الدولة (اسطنبول أوالآستانه) ولهذا فإنه كان من المعقول أن يقف مدى التوسع في أوربا عند المجر لكي تبقى الدولة مسيطرة على المناطق الأوربية التي استولت عليها.

٢. تبني الشاه إسماعيل الصفوي في إيران (١٥٠٠م-١٥٢٤م) حركة قومية طائفية قامت بنشر المذهب الشيعي في إيران و تصديره إلى البلاد المجاورة، وغزا

إسماعيل الصفوي العراق عام (١٨٥٠م) لوجود الأماكن المقدسة لآل البيت في النجف وكربلاء و الكاظمية. و توجه إسماعيل الصفوي إلى إثارة المشاكل بوجه العثمانيين الذين كانوا يعتنقون المذهب السني، وأصبحت إيران ملاذاً لأعداء العثمانيين، و شجعت الطوائف الشيعية في الدولة العثمانية على التمرد ففرقتهم السلطة العثمانية في البلاد ورد الشاه إسماعيل بإقامة مذابح عامة ضد السنه في إيران، وتطور هذا العداء إلى الحرب بين الدولتين، انتصر فيها السلطان العثماني سليم الأول على الصفويين في معركة جالديران عام (١٥١٤م) ودخل تبريزعاصمة إيران آنذاك و استولى على اذربيجان، و أخضع كردستان وديار بكر وشمال العراق وعاد إلى بلاده. إلا أن الأمر لم يحسم لأي طرف مما اقنع السلطان سليم بضرورة السيطرة على مصر و بلاد الشام لمنع التوسع الصفوي الإيراني.

٣. ظهور الخطر الأوربي المسيحي المتمثل بالغزوات و الاستكشافات البرتغالية خاصة والأوروبية عموماً الذي استهدف أقطار المغرب العربي ومنها المنافذ البحرية في المنطقة سواء مضيق جبل طارق أم باب المندب فقد شن البرتغاليون حرباً عنيفة على التجارة العربية وعملوا على خنق العرب في مياههم الداخلية. مما أدى إلى الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين، دفع العثمانيين إلى التوجه نحو المغرب العربي لحمايته من أوروبا المسيحية، فاستولى العثمانيون على جزر عدة في البحر المتوسط منها جزر رودس وقبرص وكريت.

ب. احتلال مصر والشام والحجاز

كانت مصر و بلاد الشام تحت سيطرة المماليك و كانت الحجاز تحت السيادة الاسمية لدولة المماليك، وقد توفرت عوامل ساعدت على تأجيج النزاع بين العثمانيين والمماليك وبما يخدم استراتيجية سليم الأول في احتلال الوطن العربي، ومن أبرز هذه العوامل أو الأسباب الخلاف على تخطيط الحدود بين الدولتين، وإيواء المماليك لبعض الأمراء العثمانيين الفارين من السلطان سليم؛ إذْ أراد سلطان دولة المماليك قانصوه الغوري أن يتخذ من وجود هؤلاء الأمراء لديه أداة لإثارة المزيد من المتاعب في وجه السلطان سليم، كذلك وقف سلطان المماليك

الغوري موقفاً غيرَ وديٍّ من العثمانيين في حربهم مع الفرس الصفويين، ودخل في تحالف معهم.

لقد أدت هذه العوامل إلى نشوب الحرب التي أنزل فيها العثمانيون بالمماليك هزيمة ساحقة في معركة مرج دابق شمالي حلب عام (١٥١٦م) وكانت البداية لاحتلال العثمانيين لبلاد الشام بأجمعها. وواصل السلطان سليم الأول زحفه نحو مصر فأحتلها عام (١٥١٧م) ودخل القاهره و انتهت بذلك دولة المماليك. وخلال إقامة السلطان سليم الأول في مصر أعلن شريف مكة ولاءه للعثمانيين. وقد ترتب على بسط السيادة العثمانية سلمياً على الحجاز وصول العثمانيين إلى البحر الأحمر ومحاولتهم السيطرة على اليمن وقطع الطريق على البرتغاليين.

ج ـ احتلال العراق و الخليج العربي و اليمن:

توفي السلطان سليم الأول وخلفه في الحكم ولده سليمان الأول عام (١٥٢٠م) و الذي لقب ب (سليمان القانوني) وقد بلغت الدولة العثمانية في عهده أوج قوتها واتساعها، حيث استولى على بلغراد وفتح جزيرة رودس، و أعلنت البندقية ولاءها له، واحتل بودابست وأصبحت المجر ولاية عثمانية لمدة(١٤٠) عاماً، إلا أن سليمان القانوني لم يتمكن من احتلال فينا عاصمة النمسا رغم زحفه على المدينة بجيش جرار.

أما بالنسبة إلى العراق، فقد بقيت إيران تشكل تهديداً مستمراً للدولة العثمانية خصوصاً بعد تولي الشاه طهماسب الحكم بعد وفاة والده الشاه إسماعيل الصفوي. فقد أثار الصفويون القلاقل في الأناضول (آسيا الصغرى) مما اضطر سليمان القانوني إلى الزحف بجيشه و احتلال المنطقة الممتدة من أرضروم و بحيرة وان، وتوغل في إيران وأعاد احتلال تبريز عام(١٥٣٣م). فكانت المنطلق لاحتلال بغداد عام (١٤٥٣ م) ومعظم العراق، حيث استولت القوات العثمانية على البصرة عام (١٥٣٨م) ثم امتد الحكم العثماني على منطقة الإحساء عام (١٥٥٥م) وبقية مناطق الخليج العربي.

وفي عام (١٥٣٨م) وصل العثمانيون إلى اليمن فاستولى السلطان سليمان القانوني على عدن في هذا العام، وفي السنة التالية استولى العثمانيون على السواحل العربية اليمنية كجزء من الصراع مع البرتغاليين. لكن اليمنيين ثاروا ضد

الحكم العثماني مما اضطرهم إلى الجلاء عن اليمن عام(١٦٣٥م)، ولكنهم عادوا إليها في القرن التاسع عشر الميلادي. وفي كل الأحوال فقد اقتصر نفوذ العثمانيين في اليمن على تهامة وجنوبي اليمن و صنعاء وما حولها. إلّا أن جبال اليمن الوعرة منعتهم من الوصول إلى صعدة و الجبال المحيطة بها.

د. الصراع العثماني البرتغالي في البحر الأحمر و البحر العربي و الخليج العربي:

في عام (١٤٩٨م) وصل الرحالة البرتغالي فاسكو ديكاما إلى الهند فوطد البرتغاليون أقدامهم في الشرق. وحرصوا على إيجاد قواعد لهم في البحر الأحمر والبحر العربي و الخليج العربي ليتمكنوا من السيطرة على طرق التجارة ومنافذها، فاستولوا على جزيرة سو قطرة في خليج عدن وسيطروا على جزيرة هرمز في مدخل الخليج العربي. وقاموا بمهاجمة السفن العربية في هذه المناطق وإغراقها أو إحراقها أو الاستيلاء عليها، وحولوا التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح في الطرف الجنوبي لأفريقيا، ففقد العرب مصادر رزقهم وتجارتهم. ولم تتمكن دولة المماليك في مصر و الشام من الوقوف بوجه الاستعمار البرتغالي و فشلت في طردهم، فكان على الدولة العثمانية التي احتلت محل المماليك في قلب الوطن العربي (مصر والشام) أن تقوم بهذه المهمة.

درس العثمانيون إستراتيجية الحركة الملاحية البحرية، ووجدوا أن اليمن عامة وعدن بشكل خاص هي القاعدة الأساسية التي تمكنهم من السيطرة على البحر الأحمر و البحر العربي و صولاً إلى الخليج العربي فأقاموا قاعدة بحرية في السويس لتكون منطلقاً للعمليات العسكرية في البحر الأحمر و البحر العربي والمحيط الهندي لمحاربة البرتغاليين مما سهل سيطرتهم على سواحل اليمن و صنعاء وعدن ووُفِّر للإمبراطورية العثمانية قواعد متقدمة للدفاع عن البحر الأحمر و قتال البرتغاليين في الخليج العربي. ففي سنة (١٥٥٢م) أبحر من السويس أسطول عثماني كبير لاحتلال شرقي الجزيرة العربية، وقطع خطوط الإمدادات المحلية على البرتغاليين. فاحتل العثمانيون مسقط في عُمان و حاصروا جزيرة هرمز لمدة شهر. كما شن العثمانيون هجمات من البصرة على البرتغاليين. وعلى الرغم من أنهم لم يحققوا انتصاراً حاسماً

عليهم إلا أنهم منعوا البرتغاليين من الانتشار و التوسع في الجزيرة العربية وعدم الوصول إلى الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة. كما تم سيطرة العثمانيين على البحر الأحمر قد مكنت السلطان سليمان القانوني من التحكم بطرق التجارة الدولية القديمة عبر مصر. خصوصاً و أن العثمانيين قد نجحوا في السيطرة على الساحل الأفريقي للبحر الأحمر وجعلوا من مدينة جدة في ساحل الجزيرة العربية المقابل قاعدة لولاية باسم ولاية الحنش. وبذلك أصبح البحر الأحمر بحراً عربياً إسلاميا يحرم على السفن غير الإسلامية الإبحار فيه، وأصبحت اليمن القاعدة الأساسية للدفاع عنه. كما أصبحت للعثمانيين سيادة على مناطق الخليج العربي المهمة مثل عُمان و الأَحساء و البحرين والكويت.

هـ. السيطرة على أقطار المغرب العربي:

لم يكن العثمانيون بحاجة إلى شن الحروب وإرسال الجيوش للقتال و السيطرة على المغرب العربي، لأن سكان هذا الجزء من الوطن العربي كانوا و منذ سقوط الأندلس و ظهور حركة الاستكشافات الجغرافية على صراع مع أوروبا المسيحية، وقد وجدوا العون والإسناد من قبل الدولة العثمانية لِكونها دولةً مسلمة. فقد واصل المسلمون في المغرب العربي جهادهم ضد الإسبان، وأسس العرب المسلمون المنفيون من إسبانيا مستوطنات على طول السواحل المغربية على البحر المتوسط من تونس إلى المغرب الأقصى، وكانوا يغيرون منها ويهاجمون السفن الأوروبية وخصوصاً في مضيق جبل طارق و جزيرة مالطة، فقام الإسبان بالمقابل بالسيطرة على عدد من المواقع الحصينة في المغرب الأقصى و أرغموا كذلك حكام الجزائر الحفصيين على الخضوع و السماح لهم بإقامة قاعدة بحرية إسبانية في جزيرة بينون القريبة من ميناء الجزائر.

تصاعد الجهاد العربي الإسلامي ضد الإسبان وكان من أبرز القيادات العربية البحرية الأخوان عر وج وخير الدين بربروسا اللذين تحالفا مع العثمانيين في قتال الأوربيين في هذه المناطق. وبعد قتل عر وج أصبح خير الدين قائداً للأسطول العثماني في البحر المتوسط. إن تحالف أهل المغرب العربي مع الدولة العثمانية قد أدى إلى سيطرة العثمانيين على ليبيا عام (١٥٥٦م) بعد أن استنجد بهم سكان ليبيا لتخليصهم من الأوربيين الصليبيين الذين عرفوا باسم فرسان القديس يوحنا. وقد

قام في ليبيا حكم أسرة القره مانلي الذين كانوا تابعين للسلطة العثمانية أسمياً ويتمتعون باستقلال داخلي. وعندما ضعفت الدولة القره مانليه وهاجمتها الأساطيل الغربية تدخلت الدولة العثمانية و أعادت ليبيا إلى سيطرتها المباشرة عام (١٨٣٥م). وقد بقيت ليبيا ولاية عثمانية حتى عام (١٩١١م) عندما غزاها الإيطاليون و أخرجوها من سيطرة الدولة العثمانية.

وفي تونس استنجد حكامها الحفصيون بالعثمانيين بعد أن سيطر الإسبان عليها، فتمكن العثمانيون من احتلالها عام (١٥٧٣م) و طردوا الإسبان و أقاموا نظام حكم خاص بهم بعد سقوط الدولة الحفصية على أيديهم و التي حكمت تونس من عام (١٢٠٧ ـ ١٥٧٤م) فقد عين العثمانيون حاكماً على تونس يلقب بالباشا، فمثلاً السلطان العثماني يساعده ديوان استشاري و موظف يدير الشؤون المالية يلقب (بالباي) وقائد يلقب بالأغا يتبعه ضباط للفرق العسكريه برتبة رئيس يلقب كل واحد منهم بـ(الداي). ومع مرور الزمن سيطر الدايات على الحكم من سنة (١٥٩٠. ١٦٤٠م)، ثم ظهرت سلطة الباي التي غلبت على سلطة الدايات، وكان هؤلاء البايات يحكمون البلاد حكماً مستقلاً لكنه تابع أسمياً للدولة العثمانية إلى أن احتلت فرنسا تونس عام ١٨٨١م.

أما الجزائر فقد دخلت إليها السيطرة العثمانية من خلال خير الدين بربروسا الذي كان له نفوذه في الجزائر، وضعف بعد وفاة أخيه عروج، فربط مصيره بالدولة العثمانية ووافق السلطان سليم الأول على إعطائه لقب أمير الأمراء و أمره بالجيش والمدفعية. ومنذ ذلك الوقت أصبحت الجزائر ولاية عثمانية ممتازة. وفي عهد السلطان سليمان القانوني اسْتُدعِيَ خير الدين إلى الأستانه وعُيِّنَ قائداً للأسطول التركي في البحر المتوسط. ويمكن القول: إن حكم العثمانيين للجزائر بدأ عام (١٥٤٦م) و انتهى عام (١٨٣٠م) باحتلال الفرنسيين لها.

وهكذا سيطرت الدولة العثمانية على أغلب الوطن العربي باستثناء المغرب الأقصى (مراكش) الذي لم يخضع لها.